ثلج صامت ، ثلج سري

قصة بقلم كونراد ايكن

ترجمة مصطفى عبود

ربما لم يقل لماذا كان ينبغي على وجه الدقة ان يقع ذلك ، او لم كان ينبغي ان يقع ذلك في اللحظة التي وقع فيها تماما ، وربما لم يخطر على باله حتى ان يتساءل عن ذلك . فقد كان الشيء في المقدمة سرا ، شيء ينبغي اخفاؤه بأي ثمن عن امه وأبيه ، والى تلك الحقيقة ذاتها يعود جانب كبير من لذته . اذ كان مثل حلية غريبة الجمال ـ طابع نادر ، قطعة نقد قديمة ، بضع حلقات صغيرة من الذهب يعثر عليها ممسوحة في ممر احد المنتزهات ، حجر من العقيق الاحمر ، محارة متميزة عن غيرها ببقعة او خط لونيّ خاص . ولقد حمل معه الى كل مكان ، كان ذلك الشيء كان واحدا من هذه ، حس دافيء بالتملك ، موصول وجميل على نحو متزايد . ولم يكن هذا حس بالتملك وحسب ، بل حس بالاحتماء كذلك ، كما لو ان ذلك الشيء قد منحه ، بطريقة معينة ممتعة ، قلعة ، جدارا يستطيع الانسحاب خلفه في خلوة سماوية . ولقد كان هذا ، الى حد كبير ، اول شيء فيه لفت نظره ـ الى جانب غرابة الشيء نفسه ـ وكان هذا ما يقع له الان من جديد ، فيما جلس داخل غرفة الدرس الصغيرة . كانت نصف ساعة حصة الجغرافية . وكانت الانسة بيويل تفر باصبع واحدة ، وببطء ، كرة ارضية ضخمة موضوعة فوق منضدتها . ومرت القارات الخضراء والصفراء ، ثم مرت كرة اخرى ، ووجهت الاسئلة واجيب عليها ، وانتصبت امامه الان الفتاة الصغيرة ، ديردريسة ، التي كان لها فوق مؤخرة عنقها برج صغير مضحك من النمش ، يشبه تماما برج الدب الكبير ، وقالت للانسة بيويل ان خط الاستواء هو الخط الذي يدور حول منتصف الارض .

تغضن وجه الانسة بيويل الهرم والرمادي والحنون بتخدد مرح ، وكانت تقوم على جانبي خديها تجعدات رمادية متيبسة ، وكانت عيناها تسبحان بتألق قوي خلف نظارتين سميكتين ، مثل اسماك الشيغ (١) الصغيرة .

« اه ! هكذا ـ فالارض اذن ترتدي حزاما ، او نطاقا ، او ان امرءا ما قد رسم خطا حولها ! »

« اوه ، لا ، ليس ذاك ـ اقصد ـ »

ولم يشارك في الضحك الذي عم الا قليلا . كان يفكر باصقاع القطب الشمالي والقطب الجنوبي ، التي كانت بيضاء بطبيعتها ، فوق الكرة الارضية . كانت الانسة بيويل تتحدث لهم الان عن المناطق الاستوائية ، الغابات ، حرارة المستنقعات الاستوائية المشبعة بالبخار ، حيث تضحي الطيور والفراشات وحتى الافاعي ، مثل الجواهر الحية . وفيما انصت لهذه الاشياء ، كان قد شرع يضع سره ، بمجهود نصفي من الاحساس البهيج ، بين نفسه وبين الكلمات . هل كان هذا في الحقيقة جهدا ؟ ذلك ان الجهد يتطلب شيئا قسريا ، وقد يكون حتى شيئا لا يتقبله المرء بصفة خاصة ، في حين كان هذا الجهد ممتعا على نحو واضح ، وعفويا الى حد كبير . وكان كل ما احتاجه هو التفكير بذلك الصباح ـ اول صباح ، ومن ثم بكل الصباحات الاخرى ـ .

غير ان المسألة باجمعها كانت بمنتهى البساطة ! ولم تكن ذات شأن في البداية . اذ لم تكن سوى فكرة فقط ـ اما لماذا اضحت ، على وجه التحديد ، رائعة للغاية ، ثابتة للغاية ، فقد كان ذلك لغزا ، لغزا ممتعا ، على وجه التأكيد . بل كان ذلك ، وبطريقة مسلية ، لغزا مضحكا . ومهما يكن ، ودون ان يكف عن الانصات للانسة بيويل التي انتقلت الى المنطقة الشمالية المعتدلة ، فقد عاد بذاكرته عن عمد الى الصباح الاول . لقد حدث ذلك قبل دقيقة او دقيقتين بعد ان استفاق ، وربما كان ذلك في ذات اللحظة التي استفاق فيها . ولكن هل كان هناك حقا ، وعلى وجه الدقة ، لحظة بعينها ؟ هل استفاق كليا وفي الحال ؟ اما كانت يقظته تدريجية ؟ على اية حال ، لقد حدث ذلك بعد ان مد يدا كسولة الى الاعلى صوب الجسر العلوي للسرير ، وتثاءب ، ثم استرخى من جديد بين اغطيته الدافئة ، شاعرا بامتنان اكبر في صباح مثل هذا من شهر كانون الاول ، وعندها حدث الشيء . فبغتة ، ودونما سبب ، فكر بساعي البريد ، تذكر ساعي البريد ، وربما لم تكن هناك غرابة شديدة في ذلك . فقد كان يسمع ساعي البريد ، على اية حال ، كل صباح في حياته تقريبا ـ جزمتاه الثقيلتان يمكن ان تسمعا وهما تخبان ثقيلتان عند المنعطف اعلى شارع التل القرميدي الصغير ، لتقتربا ، بعد ذلك شيئا فشيئا ، وعلوا شيئا فشيئا ، ثم يأتي الطرق المزدوج على كل باب ، اجتياز الشارع ، واجتيازه كرة اخرى ، حتى تتقدم الخطى الخرقاء متعثرة في النهاية صوب ذات الباب ، لتهبط الغرفة الهائلة هازة البيت نفسه .

(كانت الانسة بيويل تقول « مناطق شاسعة لزراعة القمح في اميركا الشمالية وسيبيريا » . كانت ديردريسة قد وضعت يدها اليسرى على مؤخرة عنقها .)

اما ذلك ذلك الصباح نفسه ، اول صباح ، فيما استلقى هناك وعيناه مطبقتان ، فقد انتظر لسبب ما ساعي البريد . وود ان يسمعه قادما عند المنعطف . وكانت تلك هي النكتة اذ انه لم يفعل ذلك مطلقا . لم يأت ابدا . لم يأت ابدا ـ عند المنعطف ـ مرة اخرى . ذلك ان الخطى حين كانت قد سمعت ، كانت متقدمة لتوها ـ كان على ثقة تامة من ذلك ـ قليلا اسفل التل ، صوب البيت الاول ، وحتى في تلك اللحظة ، كانت الخطى مختلفة بشكل غريب ـ كانت اكثر نعومة ، كان يغلفها غموض جديد ، كانت مكتومة وسرية ، وفيما كانت تمتلك ذات الايقاع ، الا انها قالت شيئا جديدا ـ قالت سلام ، قالت نوى ، قالت برد ، قالت رقاد . وادرك الموقف في الحال ـ اذ لم يكن هناك من شيء اكثر بساطة من ذلك ـ لقد هطل الثلج اثناء الليل ، كذاك الذي تاق اليه طوال الشتاء ، كان هو الذي جعل اولى خطى ساعي البريد صامتة ، والتي بعدها خافتة . بالطبع ! ما اروع ذلك ! لا بد انها ما زالت تثلج حتى الان ـ وسوف يكون اليوم ثلجيا ـ كانت الخطوط البيضاء المشرشرة تهمي وتنثال عبر الشارع ، عبر وجوه المنازل القديمة ، هامسة ومكتومة ، صانعة مثلثات صغيرة من البياض عند الزوايا بين احجار القرميد ، موشوشة قليلا متى تجرفها الريح فوق الارض صوب ركن طافح بالثلج المجروف ، اذن سيظل طوال اليوم ، ليضحي عميقا اكثر فاكثر وصامتا اكثر فاكثر .

(كانت الانسة بيويل تقول « ارض دائمة الثلج » .)

طوال هذا الوقت ، بطبيعة الحال (فيما كان يرقد في سريره) ، ابقى عينيه مطبقتين ، منصتا الى الدنو المتسارع لساعي البريد ، لخطى الاقدام المكتومة تخبط وتنزلق فوق احجار القرميد الثلجية الغطاء ، كانت جميع الاصوات الاخرى ـ الطرق المزدوج ، صوت مثلج بعيد او صوتان ، جرس يدندن بخفوت ونعومة كما لو كان تحت طبقة من الجليد

---

* عن كتاب Great American Short Stories

(١) الشيغ Minnow نوع من السمك النهري الصغير ، ينتمي الى عائلة سمك الشبوط ويمتاز بزعانفه الرقيقة .

ـ تأخذ نفس الطابع التجريدي الطفيف ، كأنها انحرفت درجة واحدة عن الواقع الفعلي ـ كأن كل شيء في العالم قد كساه غلاف ثلجي. لكنه حين فتح عينيه ، في النهاية ، فرحا ، وادارهما صوب النافذة ليشاهد بنفسه هذه الرغبة المرتقبة والمعجزة التي كان يتخيلها الان بصفاء تام ، لم ير سوى نور الشمس الساطع فوق السقف ، وفيما اصابته الدهشة ، قفز من السرير واطل على الشارع ، منتظرا رؤية احجار القرميد تفرقها الثلوج ، الا انه لم ير سوى الحجر المتألق العاري ذاته .

كان تأثير هذا الانبهار عليه شديدا ـ فطوال الصباح التالي ظل يحمل معه احساسا بتهاطل الثلج فيما حوله ، وظلت تقف بينه وبين العالم شاشة سرية من الثلج الجديد . واذا كان لم يحلم بشيء من هذا القبيل ـ اذ كيف كان بوسعه ان يحلم وهو يقظان ؟ ـ فكيف كان بوسع المرء اذن ان يفسر ذلك ؟ ومهما يكن ، فقد كان الوهم باهرا لدرجة اثر على كامل سلوكه . ولم يستطع الان ان يتذكر ان كان ذلك في الصباح الاول او الثاني ـ ام كان ذلك في الصباح الثالث ؟ ـ عندما لفتت امه انتباهه الى بعض الغرابة في سلوكه .

قالت له امه عند مائدة الافطار « ولكن ، ماذا دهاك ، يا حبيبي ؟ اذ لا يبدو عليك انك تصغي ـ »

ولكم تكرر ذلك الشيء منذ تلك اللحظة !

(كانت الانسة بيويل تسأل فيما اذا كان هناك من يعرف الفرق بين القطب الشمالي والقطب المغناطيسي . كانت ديردريسة ترفع يدها السمراء المرفرفة . كان بوسعه ان يشاهد النتوءات الاربعة البيضاء المدورة التي تحيط المفاصل .)

ربما لم يكن ذلك في الصباح الثاني ولا الثالث ـ ولا حتى الرابع او الخامس . وكيف كان بوسعه ان يكون على ثقة من ذلك ؟ كيف كان بوسعه ان يكون على ثقة في اي وقت على وجه الدقة اضحى الدنو الممتع واضحا ؟ متى بدأ فعلا وعلى وجه التحديد ؟ ذلك ان الفواصل لم تكن واضحة للغاية ... وكل ما يعرفه الان ان عند مرحلة معينة او اخرى ـ قد يكون اليوم الثاني او ربما كان اليوم السادس ـ لاحظ ان حضور الثلج اضحى اكثر الحاحا على نحو ما ، وصوته اكثر وضوحا ، وعلى الضد من ذلك ، كان صوت خطى ساعي البريد يضحي اكثر غموضا . ذلك انه لم يفقد القدرة فقط على سماع الخطى وهي تدور عند المنعطف ، بل انه فقد القدرة على سماعها عند البيت الاول كذلك . فقد كان ذلك بعد البيت الاول عندما سمعها ، وبعد ذلك بايام قلائل كان ذلك بعد البيت الثاني عندما سمعها ، وبعد ايام قلائل اخرى ، بعد البيت الثالث . وهكذا كان الثلج يصبح ، شيئا فشيئا ، اكثر كثافة ، وصوت انهماره اكثر ارتفاعا ، واحجار القرميد مكتومة اكثر فاكثر . وحين كان يجسد ، كل صباح ، حين يقصد النافذة ـ بعد طقس الانصات ـ ان السقوف والاحجار ما زالت عارية كما كانت ، لم يعد لذلك ادنى تأثير عليه . فقد كان هذا ، على اية حال ، هو ما توقعه ، بل ان ذلك كان مبعثا لبهجته ، ومصدرا لاثابته : اذ كان الشيء ملكه الخاص ، وليس لاحد اخر سواه . وليس من احد اخر سواه يعرفه ، حتى امه وابوه . هناك ، في الخارج ، كانت الاحجار العارية ، وهنا ، في الداخل ، كان الثلج ـ ثلج يهطل بغزارة اكثر فاكثر ، مع كل يوم يمر ، كاتما صوت العالم ، مخفيا ـ قبل كل شيء ـ الخطى القبيحة ، الميتة على نحو متزايد ، لساعي البريد .

قالت له امه عند مائدة الغداء « ولكن ماذا دهاك ، يا حبيبي ؟ اذ لا يبدو عليك انك تصغي حين يتكلم الناس معك . هذه هي المرة الثالثة التي اطلب فيها منك ان تناول صحنك ... »

كيف كان بوسع المرء ان يشرح هذا لوالدته ؟ او لوالده ؟ لم يكن هناك بطبيعة الحال ايما شيء يمكن عمله بصدد ذلك . ايما شيء ـ كل ما كان بوسع المرء ان يفعله هو ان يضحك بحيرة ، متظاهرا بانه خجل لحد ما ، معتذرا ، متخذا سمة الاهتمام المباغت وغير الاصيل بما كان يفعل او يقال . القطة ظلت في الخارج طوال الليل . على خده الايسر ورم غريب ـ ربما رفسه شخص ما ، او ان حجارة ضربته . السيدة كمبتن ستأتي أو قد لا تأتي لتناول الشاي . البيت سينظف او «يقلب» يوم الاربعاء بدلا من يوم الجمعة . كان مصباح جديد قد وضع لاجل واجباته المسائية ـ قد يكون الاجهاد البصري مصدر هذا الغموض الجديد والشاذ للغاية الذي يعانيه ـ كانت أمه تتطلع اليه بفضول وهي تقول هذا ، وبشيء اخر كذلك . مصباح جديد ؟ مصباح جديد . نعم يا اماه ، كلا يا اماه ، نعم يا اماه . الدراسة تسير بصورة جيدة . الجبر بسيط للغاية . التاريخ ممل تماما . الجغرافية ممتعة للغاية ـ خاصة اذا ساحت بالمرء الى القطب الشمالي . ولماذا الى القطب الشمالي ؟ اوه ، حسنا ، انه لشيء مسل ان يكون المرء مكتشفا . بيري اخر او سكوت او شاكلتون . واكتشف بعد ذلك بفترة ان شفقه بالحديث قد نضب . وحدق في المقانق التي في صحنه ، انصت ، انظر ، وبدأ من جديد ـ اه ، كم هي سماوية البدايات الاولى كذلك ـ ان تسمع او تحس ـ اذ هل كان بوسعه حقا أن يسمعه ؟ ـ الثلج الصامت ، الثلج السري .

(كانت الانسة بيويل تحدثهم الان عن قصة البحث عن الممر الشمالي الغربي ، عن هنديك هدسن ، عن نصف القمر .)

كان هذا ، في حقيقة الامر ، هو السمة المؤلمة الوحيدة في التجربة الجديدة : ذلك انها حملت له في الواقع نوعا من سوء الفهم الصامت ، بل نوعا من الصراع ، مع ابيه وامه . فكان مثل من يحاول ان يعيش حياة مزدوجة . فمن جهة ، كان عليه ان يكون بول هاسلمان ، وان يحافظ على مظهر كونه ذلك الشخص ـ ان يلبس ، يغتسل ويجيب بذكاء عندما يوجه له الحديث ، وكان عليه ، من جهة اخرى ، ان يكتشف هذا العالم الجديد الذي تفتح امامه : اذ لم يكن هناك من شك ـ اي شك ـ في ان العالم الجديد كان هو الاكثر عمقا والاشد روعة من بين العالمين . فهو لا يقاوم ، وهو اعجوبة ، وجماله ببساطة يجتاز اي شيء ـ يجتاز الكلمة والفكرة معا ـ لا يطال تماما . اذن كيف كان عليه ، وهو بين هذين العالمين اللذين كان يعيهما بهذا الشكل بصورة مستمرة ، ان يحافظ على التوازن ؟ ذلك ان على المرء ان ينهض من رقاده ، ان يذهب للافطار ، ان يتحدث مع امه ، ان يقصد المدرسة ، وينجز دروسه ـ وفي كل هذا كان عليه ان يحاول ان لا يبدو بمظهر الاحمق لدرجة كبيرة . واذا كان على المرء ، طوال الوقت ان يحاول استخلاص كل المتعة من عالم اخر منفصل تماما ، عالم لا يمكن الحديث عنه ببساطة (ان كانت هناك امكانية للقيام بذلك) ـ فكيف كان بوسعه اذن ان يدبر ذلك ؟ وكيف يستطيع المرء ان يشرح ذلك ؟ بل هل من السلامة شرح ذلك ؟ ام سيبدو ذلك سخيفا ؟ وهل سيعني ذلك ايضا انه سيقع في نوع من المتاعب الغامضة ؟

كانت هذه الافكار تروح وتغدو ، تروح وتغدو ، ناعمة وسرية كالثلج ، ولم تكن هذه ، على وجه الدقة ، تهيجا ، بل ربما كانت متعة ، كان يحب ان تلازمه ، كان حضورها شيئا يكاد يكون ملموسا ، شيئا يستطيع ان يداعبه بيده ، دون ان يطبق عينيه ، دون ان يكف عن مشاهدة الانسة بيويل وغرفة الدرس والكرة الارضية والنمش على عنق ديردريسة ، الا انه على نحو ما كان قد كف عن الرؤية حقا ، او انه كان قد كف عن رؤية العالم الخارجي الواضح ، واستعاض عن هذه الرؤيا برؤيا الثلج ، بصوت الثلج ، بالدنو البطيء ، الصامت تقريبا لساعي البريد . ويوم امس ، كان ذلك عند البيت السادس تماما حين اضحى ساعي البريد مسموعا ، كان الثلج الان قد اصبح اشد عمقا ، وكان ينهمر بسرعة وغزارة اشد ، واضحى صوت انهماره اكثر وضوحا ، اشد عذوبة ، وموصولا على نحو اقوى . وفي هذا الصباح ـ وبالدقة التي يستطيع قياس ذلك ـ كان قد اضحى فوق البيت السابع تماما ، وقد يكون قبل خطوة او خطوتين ، وفي اكثر الاحتمالات ، فقد سمع خطوتين او ثلاث خطى قبل ان يرن الطرق ... ومع كل ضيق في الافق ، مع كل دنو يختزل المسافة التي كان فيها ساعي البريد مسموعا في البداية ، كان غريبا الطريقة التي تفاقم فيها على نحو حاد مقدار الوهم الذي كان عليه ان يحمله معه الى العمل المألوف للحياة اليومية . ومع كل يوم يمر كانت

تزداد صعوبة النهوض من السرير ، الذهاب الى النافذة ، الاطلال على الشارع الفارغ ـ كما هي الحالة دوما ـ الذي لا ثلج فيه .

مع كل يوم يمر كانت تزداد صعوبة ممارسة حركات التحايا الرتيبة الى امه وابيه عند الافطار ، الاجابة على الاسئلة التي يوجهانها ، رصف كتبه والذهاب الى المدرسة . وكم كانت صعبة بصورة فائقة ، خلال المدرسة ، القيادة الناجحة في آن واحد للحياة العامة والحياة التي كانت سرا . وكان هناك وقت باق فيه ـ بل توجع على وجه التأكيد ـ ان يحكي لكل امرء عنه ـ أن ينفجر بسره ـ فقط ليوقفه في ذات اللحظة تقريبا شعور عميق بان شيئا من السخف موروث فيه ـ ولكن هل كان ذلك سخفا ؟ ـ وما كان يحتمل اهمية اعظم هو احساسه بقوة سره الخاص الغامضة . اجل : ينبغي ابقاؤه سرا . ويضحي ذلك واضحا ، اكثر فاكثر ، مقابل اي ثمن يدفعه ، مقابل اي الم يسببه للاخرين ـ

(تطلعت الانسة بيويل نحو مباشرة ، وهي تبتسم ، وقالت « قد نوجه السؤال الى بول . اني متأكدة ان بول سيستيقظ من حلم يقظته الطويل ليعطينا الجواب . هلا تفضلت يا بول ؟ » نهض عن كرسيه ببطء ، مرخيا احدى يديه على المنضدة المتألقة الصقال ، وحدق بعزيمة من خلال الثلج صوب السبورة . كان هذا جهدا ، ولكن كان من الممتع القيام به . اجاب ببطء « اجل ، لقد كان ذلك ما نطلق عليه اليوم اسم نهر الهدسن . ولقد ظن ان هذا هو الممر الشمالي الغربي . فخاب امله . » جلس من جديد ، وحين فعل ذلك استدارت ديردريسة نحوه نصف استدارة بكرسيها ومنحته ابتسامة خجولة من التأييد والاعجاب .)

مقابل اي الم يسببه للاخرين .

كان هذا الجزء منه محيرا تماما ـ محيرا تماما . ذلك ان امه طيبة للغاية ، وكذلك اباه . اجل ، كان ذلك حقيقي بما فيه الكفاية . وكان يود ان يكون طيبا ازاءهما . ان يقول لهما كل شيء ـ ومع هذا ، اهو على خطأ ان كان يريد الاحتفاظ بمكان سري لنفسه ؟

وفي الليلة الماضية ، وقت النوم ، قالت له امه « اذا استمر ذلك ، يا بني ، فينبغي علينا ان نستشير طبيبا ، ينبغي علينا ! لا يمكن ان ندع ولدنا ـ » ولكن ما هو الشيء الذي قالته ؟ « يعيش في عالم اخر ؟ » « يعيش بعيدا ؟ » كانت هناك كلمة « بعيد » ، انه واثق من ذلك ، ومن ثم تناولت امه من جديد مجلة وضحكت قليلا ولكن بتعبير لم يكن مرحا . واحس بالاسى نحوها ...

رن جرس الانصراف . ودف الصوت اليه عبر المتوازيات المنحنية الطويلة للثلج المتهاطل . وشاهد ديردريسة تنهض ، وكان هو قد نهض تقريبا ، ولكن ليس بنفس السرعة التي نهضت فيها .

ـ ٢ ـ

خلال العودة ، التي كانت بلا زمن ، صوب البيت ، سره ان يتطلع خلل رفقة ـ او معاكسة الثلج ، الى تفاصيل برانية الوجود المجردة على طريقه . كان هناك فوق الارصفة انواع عديدة من القرميد ، مرصوفة باساليب متعددة الاشكال . وكانت جدران الحدائق متنوعة هي الاخرى ، بعضها ذو اسوار خشبية ، والبعض الاخر من الجبس ، والبعض من الحجر . وفوق المشى ، تهدلت اغصان الشجر الكثيف ، فيما كانت براعم السوسن الشتوية الخضراء الصغيرة الصلبة ، ملفوفة مكتنزة فوق السيقان الرمادية ، كانت هناك اغصان اخرى رفيعة للغاية ورائعة وسوداء وجافة . وتجمعت في الدغل عصافير كئيبة ، كدرة اللون مثل ثمرة ميتة مهجورة على شجرة جرداء . وزاط زرزور لوحده فوق دوارة اتجاه الريح . وفي مجرى للمياه ، قرب احدى البالوعات كانت ، هناك قصاصة من صحيفة ممزقة وقذرة ، مخشورة في دلتا صغيرة من الاقذار ، وظهرت باحرف كبيرة كلمة اكزيما ، وتحتها كانت هناك رسالة من السيدة اميليا دي كرافات ، ٢١٠٠ شارع باين ، فورت ورث ـ تكساس ، تشير الى انها بعد ان ظلت مريضة لسنوات ، افلح مروخ كالي في اشفائها . وفي الدلتا الصغيرة ، جنب مجرى الامتداد العميق من الطين الاسمر ، ذي شكل المروحة ، كانت هناك اغصان صغيرة ضائعة ، نازلة من اشجارها الام ، وعلب كبريت فاسدة ، عنقود كستناء متعفن ، كوم صغيرة من الحصى البراق على حافة مجرى المياه القذرة ، كسرة من قشرة بيض ، خيط من نشارة الخشب الصفراء كانت مبللة وقد جفت الان ونيبست ، حصاة سمراء وريشة مكسورة . وفي الامام كان رصيف من الاسمنت ، مصمم على هيئة متوازيات اضلاع هندسية ، وعند احدى نهاياته اوح نحاسي يكرس ذكرى المقاولين الذين شيدوه ، وعبر منتصف الطريق ، خلد حجر صناعي نسق مشوش وعشوائي لاثار خطى اقدام كلب . وكان يعرف هذا ، وكم هي عديدة المرات التي خطا فوقه . وكم كانت تغطيه التجاويف الصغيرة بقدمه تسلية غريبة ، واليوم قام بذلك كرة اخرى ، ولكن بدون مبالاة وبشعور من الانفصام ، مفكرا طوال الوقت بشيء اخر . كان هناك كلب ارتكب ، قبل زمن طويل ، خطأ ومشى فوق الاسمنت الذي كان ما يزال رطبا انذاك . وربما كان الكلب قد هز ذيله ، الا ان ذلك لم يسجل . واجتاز بول هاسلمان الان وهو في الثانية عشر من عمره ، في طريقه من المدرسة الى البيت ، نفس النهر ، الذي تجمد مع الزمن وصار حجرا ، صوب البيت عبر الثلج ، عبر الثلج المتهاطل في نور الشمس المتألق . صوب البيت ؟

بعد ذلك جاءت البوابة والعمودان اللذان كانت ترتفع فوقهما صخرتان ذواتا شكل بيضوي وهما تستقران متوازيتين بمهارة على طرفيهما ، كما لو ان كولومبس كان هو الذي اركزهما ، مجبستين في ذات وضع التوازن : مصدرا للعجب الدائم . وعلى الجدار القرميدي ، خلفهما مباشرة ، كان هناك حرف ه محفور ، وربما كان ذلك لفرض معين . ه ؟ ه .

والحنفية الكبيرة الخضراء ، ذات حلقة صغيرة خضراء الاهاب مربوطة الى مفتاحها النحاسي .

وشجرة الدردار ، ذات الجرح الرمادي العميق في اللحاء ، الكليوي الشكل ، الذي كان يضع عليه يده دوما ـ ليحس الخشب البارد والحي كذلك . وكان واثقا ان الجرح قد سببته عضات حصان مربوط . اما الان فلم يكن نصيبه سوى كف عابرة ، ومجرد نظرة غفران . كانت هناك اشياء اكثر اهمية . معجزات . فخلف الانكار عن الشجر ، لم يكن سوى الدردار . وخلف الافكار عن الارصفة ، لم يكن سوى الحجر ، سوى القرميد ، سوى الاسمنت . وكذلك حتى خلف الافكار عن حذائه ، الذي يجوب الارصفة باستسلام ، رافعا ـ الى الاعلى ـ وزر سر محكم . وتأمله ، لم يكن مصقولا بصورة جيدة : فقد اهمله ، لسبب وجيه تماما : كان واحدا من الاجزاء العديدة للصعوبة المتفاقمة في العودة يوميا الى الحياة اليومية ، الى الكفاح الصباحي . في النهوض ، بعد ان يكون المرء قد فتح عينيه اخيرا ، في ارتياد النافذة ، واكتشاف ان الثلج لم يكن هناك ، في الاغتسال ، في اللبس ، في نزول العتبات المتعرجة الى الافطار .

مقابل اي الم يسببه للاخرين ، غير ان على المرء أن يواصل حالة الانفصام ، طالما بقيت حالة انعدام قابلية ايصال التجربة تتطلبها . انه لشيء حسن ، بطبيعة الحال ، ان تكون رحيما بامك وابيك ، وبشكل خاص حين يكون القلق قد بدا عليهما ، ولكن من المستحسن كذلك ان يكون المرء حازما . واذا كان قد قرر ـ كما يبدو ذلك محتملا ـ استشارة طبيب ، هو الدكتور هاولز ، من اجل ان يفحص بول ، وان ينصت الى قلبه عبر ما يشبه الديكتافون ، الى رئتيه ، الى معدته ـ حسنا ، ان ذلك شيء لا بأس به ، وسيجتازه ، ويرد الجواب على السؤال ايضا ـ وربما قدم لهم اجوبة لم يتوقعوها ؟ كلا . لن ينفع ذلك ابدا . فالعالم السري ينبغي ان يصان ، مهما يكن الثمن .

كان عش الطير في شجرة التفاح مهجورا ـ كان وقت السنة غير الملائم للحمرات* . لقد فقد الباب الاسود الصغير المدور جاذبيته .

---

* الحمرات Wrens نوع من الطيور المغردة الصغيرة ، ذات لون بني ، واجنحة قصيرة مستديرة ، وذيل مستقيم قصير ، واشهر انواعها الحمرة البيتية التي تكثر شرق الولايات المتحدة .

كانت الحمرات تمتع نفسها في بيوت اخرى ، في اعشاش اخرى ، في اشجار اكثر بعدا . وكانت هذه ايضا فكرة لم يستمتع بها الا بصورة غامضة وبنوع من التماس الخفيف . كأنه لم يلمس في تلك اللحظة سوى حافتها . كان هناك شيء قصي احتل لنفسه اهمية اكثر الحاحا . شيء كان يجرح زوايا عينية ، ويجرح زوايا عقله كذلك ـ وكان ممتعا ان يفكر كم اراد هو ذلك ، كم انتظره ـ ورغم هذا فقد وجد نفسه يتمتع بهذا المزاح العابر مع عش الطير ، كما لو كان ذلك تأجيلا وتعجيلا متعمدا تماما للبهجة المرتقبة . وكان يعي تأخره ، يعي ابتسامه وحملقته الساهمة والفارغة الان تقريبا الى عش الطير الصغير . كان يعي اي شيء ينتظره بعد ذلك : شارع التل القرميدي الصغير ، بيته نفسه ، النهر الصغير عند قاع التل ، دكان البقال والرجل الكارتوني في نافذة العرض .وفكر بكل هذا الان ، ادار رأسه مبتسما ما يزال ، متلفتا ذات اليمين واليسار خلل نور الشمس المشبع بالثلج .

كان ضباب الثلج ما يزال ، كما تنبأ به ـ شبح من الثلج الهاطل في نور الشمس البرّاق ، ناعم ورتيب ، طاف ومستدير ومتوقف ، معانقا بصمت الثلج الذي غطى ـ كسراب شفاف ـ حجر القرميد العاري المتألق . واحبه ـ توقف ساكنا واحبه . ـكان جماله مذهلا ـ يجتاز كل الكلمات ، كل التجارب ، كل الحلم . ولم يكن هناك من قصة خرافية قراها بوسعها ان توازيه ابدا ، ولم يكن هناك من شيء منحه ابدا مثل هذا المزيج المذهل من العذوبة الشفافة مع شيء اخر ، لا يسمى ، مخيف بخفة ولذة وحسب . ماذا كان هذا الشيء ؟ وفي اللحظة التي فكر فيه ، رفع رأسه متطلعا صوب نافذة غرفة نومه ، التي كانت مشرعة ـ وكان ذلك كأنه تطلع مباشرة داخل الغرفة وشاهد نفسه مستلقيا في سريره نصف يقظان . هناك ان ـ في تلك اللحظة العابرة ذاتها ربما كان في الواقع ما يزال هناك ـ حقيقي اكثر مما هنا وهو واقف عند طرف شارع التل القرميدي ، واحدى يديه مرفوعة تظلل عينيه من الشمس ـ الثلج. وهل كان قد غادر غرفته ، طوال هذا الوقت حقا ؟ منذ ذلك الصباح الاول نفسه ؟ وهل ما زال الدنو الذي يأخذ كامل مجراه هناك ، اما زال هو الصباح الاول ، وساعي البريد ألم يأت بعد عند المنعطف ؟..

وانسته هذه الفكرة ، وبآلية ، فيما فكر بها ، ادار رأسه صوب قمة التل . لم يكن هناك ، بطبيعة الحال ، أي شيء ـ لا شيء ولا احد. كان الشارع فارغا وساكنا . وخطر له ، اكثر من هذا وبسبب من فراغ الشارع ، ان بعد البيوت ـ وهو شيء كان من الغريب حقا انه لم يفكر ان يقوم به قبل ذلك . وكان يعرف في الواقع انه لم تكن هناك كثير من البيوت ـ اي الكثير منها على جانب الشارع الذي يقع فيه بيته ، والتي كان يعدها اثناء قدوم ساعي البريد ـ ورغم هذا فقد داهمته كالصدمة حين اكتشف انه لم يكن هناك سوى ستة بيوت فقط ، قبل بيته ـ اذن فقد كان بيته هو السابع .

ستة !

وتطلع الى بيته مذهولا ـ نظر الى الباب الذي يحمل رقم ثلاثة عشر ـ ثم ادرك ان المسألة بكاملها كانت على وجه الدقة وبصورة منطقية وحمقاء مثلما كان ينبغي عليه ان يدركها . ورغم هذا فقد منحه تحقق هذا الادراك بغتة وبشكل مخيف الى حد معين ، احساسا بالعجلة . فقد دفع ليكون متعجلا ، وقد حث ليضحي مندفعا ، ذلك لانه ـ وعقد حاجبيه ـ لا يمكن ان يكون على خطأ ـ فقد كان ذلك عند البيت السابع على وجه الدقة ، نفس بيته ، حين اضحى ساعي البريد مسموعا هذا الصباح ذاته . ولكن في هذه الحالة ـ في هذه الحالة ـ هل يعني ذلك انه لن يسمع في الغد شيئا ؟ ذلك ان الطرقة التي سمعها لا بد وانها كانت على باب بيتهم نفسه . وهل يعني هذا ـ وهذه فكرة اعطته احساسا استثنائيا حقا بالدهشة ـ انه لن يسمع ساعي البريد مرة اخرى ابدا ؟ ـ وهل سيكون ساعي البريد صباح الغد قد اجتاز البيت فعلا في ثلج عميق للغاية لنصبح خطى اقدامه صامتة كليا ؟ ويكون عندها قد اتم انحداره في الشارع المغطى بالثلج بصمت مطبق ، بسرية مطبقة ، بينما يكون هو ، يول هاسلمان ، ما زال لم يستيقظ في الوقت المحدد ، راقدا هناك على السرير ، او ان كان سيستيقظ في الوقت المحدد ، فهل سيسمع شيئا ؟

ولكن كيف يمكن ان يحدث ذلك ؟ اذا لم تكن حتى المطرقة نفسها قد كتمها الثلج ـ منجمدة تماما ، ربما ؟ ولكن في تلك الحالة ـ .

وتسلط عليه شعور غامض من خيبة الامل ، حزن غامض ـ كأنه قد احس ان يجرد من شيء انتظره طويلا ، شيء لا يقدر بثمن . فهل بعد كل يوم ، وخطى الاقدام اقرب فاقرب ، ومدى العالم المسموع يضيق عبر الثلج الصامت والثلج السري ، والطرقة وهي تزحف اقرب فاقرب كل يوم ، وخطى الاقدام اقرب فاقرب ، ومدى العالم المسموع يضيق على هذا النحو كل يوم ، يفيق ويفيق ، بينما يتكون الثلج ويغمق بوداعة وجمال ، هل يجرد بعد كل هذا من الشيء الاوحد الذي اراده بشوق ـ ان يستطيع ان يعد ـ كما كان يفعل ـ خطى الاقدام الاثنتين او الثلاثة المهيبة الاخيرة ، وهي تتقدم اخيراً صوب بابهم نفسه ؟ وهل سيحدث كل ذلك ، في النهاية ، على هذا النحو المفاجيء ؟ أم ان ذلك قد حدث حقا وعلى نحو فعلي ؟ بدون تدرج بطيء وبارع في الوعيد يستطيع عن طريقه ان يتنعم ؟

حملق الى الاعلى من جديد ، الى نافذته التي برقت في الشمس : هذه المرة تمنى بانفعال تقريبا بانه كان من المستحسن لو كان ما يزال في السرير ، في تلك الغرفة ، اذن لكان الصباح الاول عندها ما يزال ، وستظل هناك ست صباحات اخرى ستأتي ـ او على هذا المنوال، سبع او ثمان او تسع ـ كيف يمكنه ان يكون واثقا ـ وربما اكثر .

ـ ٣ ـ

بعد العشاء ، بدأ الاستجواب . جلس امام الطبيب ، تحت المصباح، واستكان بصمت الى الدق والنقر .

« والان هل لك ان تتفضل وتقول « آه ! » ؟

« آه ! »

طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء

« والان مرة اخرى ، اذا لم تمانع » .
« آه . »
« قلها ببطء واحجزها ان امكنك — »
« آه — هـ — هـ — هـ — هـ — هـ — »
« طيب » .

لكم هو اخرق كل هذا . كأن لذلك علاقة ما بحنجرته ! او بقلبه او رئتيه !

وارخى فمه الذي كانت زواياه تحس الالم بعد كل هذا المط الاخرق ، وزاغ عن عيني الطبيب ، وحدق صوب المدفأة ، مجتازا قدمي أمه (نجفين رماديين) اللذين برزا من الكرسي الاخضر ، مجتازا قدمي ابيه (بخفين بنيين) اللذين اصطفا منظمين واحدا جنب الاخر فوق بساط الموقد .

« هم — ليس هناك من شيء على وجه التأكيد ... »

واحس عيني الطبيب تستقران عليه ، ورد النظرة ، كأنه اراد فقط ان يكون مؤدبا — ولكن باحساس من المراوغة المبررة .

« قل لي ، الان ، ايها الشاب — هل تشعر انك بخير ؟ »
« اجل ، يا سيدي ، بخير تماما » .
« لا صداع ؟ لا دوار ؟ »
« لا ، لا اعتقد ذلك . »

« دعني ارى . لنأت بكتاب ، ان لم يكن لديك مانع — نعم ، شكرا ، هذا يؤدي القصد بصورة رائعة — والان ، يا بول ، هلا قرأت فيه ، ممسكا به كما اعتدت ان تفعل — »

اخذ الكتاب وقرأ :

« وحمد اخر واجب علي قوله لهذه المدينة أمنا ، هدية اله عظيم ، مجد ارض لابطال ، جبروت الجياد ، جبروت الجياد الفتية ، بأس البحر ... فلاجلك ، يا ابن كرونوس ، توجك هنا ، ربنا بوزيدون بهذا الفخار ، اذ انك عرضت في هذه الطرقات اول مرة اللجام الذي يكبح جماح الجياد المطهمة المجداف الجميل ، طوع يد الرجال ، وقد كان له عظيم السرعة في الماء الاجاج ، متعقبا جنيات البحر ذوات المائة قدم ... اينها الارض المعلاة على كل الارض ، ها هو الان دورك لتحولي كل هذه المدائح المتألقة الى اعمال ترى .. »

وتوقف ، مجربا ، وانزل الكتاب الثقيل .

« كلا — كما اعتقدت — اذ ليس هناك على وجه التأكيد اية علامة ظاهرية على الاجهاد البصري » .

وزحم الصمت الغرفة ، وكان يحس الانتباه المسلط من الثلاثة الذين يواجهونه .

« بوسعنا ان نفحص عينيه ، لكني اعتقد انه شيء اخر » .
« وأي شيء يمكن ان يكون ؟ » كان هذا صوت ابيه .
« انه هذا الشرود الغريب فحسب — » كان هذا صوت امه .

وفي محضر الطبيب كان كلاهما يبدوان لجوجين بانفعال .

« اعتقد انه شيء اخر . والان يا بول — اود كثيرا ان اوجه اليك سؤالا او سؤالين ستجيب عليهما ، اليس كذلك — انك تعرف انني صديق قديم ، قديم لك ، هه ؟ هذا صحيح ! .. »

ونقر ظهره مرتين بقبضة الطبيب المكتنزة — ثم كشر بوجهه بمودة مفتعلة ، بينما هرش الزر العلوي لصدريته . خلف كتفي الطبيب ، كانت النار ، اصابع النار تصنع نورا راقصا امام مؤخرة المدفأة الهبابية ، وكان الصوت الخافت لرفيقها العشوائي هو الصوت الوحيد .

« اود ان اعرف — هل هناك ما يقلقك ؟ »

كان الطبيب يبتسم مرة اخرى ، جفناه نازلان على الحدقتين السوداوين الصغيرتين اللتان كانت تتألق فيهما حبة صغيرة بيضاء من الضوء . لم ينبغي ان يرد عليه ؟ لم يرد عليه اطلاقا ؟ « مقابل اي الم يسببه للاخرين » — بل ان كل هذا ليس الا اقلاق للراحة ، هذه الضرورة للمقاومة ، هذه الضرورة للانتباه : كان مثل امرىء ينتصب فوق مسرح باهر الاضاءة ، تحت الوهج الدائري العظيم لرفعة الضوء ، كأن المرء لم يكن سوى نقمة مدربة ، او كلب بهلوان ، او سمكة اخرجت من ذيلها . ولسوف يناسبهم للغاية لو انه نبح او زمجر فقط . وفيما كان يفتقد تلك الساعات القليلة الاخيرة الغالية ، تلك الساعات التي كانت كل دقيقة فيها اكثر جمالا من الاخرى ، اكثر وعيدا — ؟ ظل يتطلع ، كما لو كان من مسافة بعيدة ، صوب حبات النور المتألقة في عيني الطبيب ، صوب الابتسامة الثابتة المفتعلة ، ثم تطلع الى ما وراء ذلك كرة اخرى ، الى خفي أمه ، خفي ابيه والرفيف الناعم للنيران . حتى هنا ، حتى بين هذه الكائنات العدائية ، وتحت هذا النور المعد سلفا ، كان بوسعه ان يرى الثلج ، كان بوسعه ان يسمعه — كان في زوايا الغرفة ، حيث الظلال اشد عمقا ، تحت الطنفة ، خلف الباب نصف المفتوح ، الذي يفضي الى غرفة الطعام . وهنا كان اكثر رقة ، اكثر نعومة ، يوشوش اكثر الهمسات عذوبة ، كأنه تحلى عن عمد ، اجلالا لغرفة الاستقبال ، بـ « اخلاقه » ، فابقى نفسه بعيدا عن الانظار ، اخفى نفسه ، ولكن بهيئة من يقول بوضوح « آه ، ولكن انتظر فقط ! انتظر حتى نخلو بنفسينا فقط ! عندها سنوافيك بشيء جديد ! شيء ابيض ! شيء بارد ! شيء ناعس ! شيء للنوى والسلام ، ولقوس الفضاء المتألق الطويل ! قل لهم ان يذهبوا! اطردهم ! ارفض الكلام . اتركهم واصعد السلم الى غرفتك ، أطفىء الضياء واصعد الى سريرك — ساذهب معك ، ساكون بانتظارك ، سأقص عليك قصة اجمل من قصة كاي الصغيرة المتزحلقة على الجليد او من قصة منسبح الثلج ، سأحيط سريرك ، سأغلق النوافذ ، وسأركم كوما عميقا خلف الباب ، لكي لا يستطيع احد الدخول ابدا . تكلم معهم .. »

وبدا كأن صوت الصفير الهامس ينبعث من حازون ابيض بطيء متكون من الندف المتساقطة في الزوايا جنب النافذة الامامية — لكنه لم يكن متأكدا . واحس بنفسه يبتسم عندها ، وقال للطبيب ، دون أن يتطلع اليه ، مستمرا في النظر الى ما وراءه —

« اوه ، لا ، لست اعتقد — » .
« لكن هل انت على ثقة من ذلك يا بني ؟ »

جاء صوت ابيه عندها ناعما وباردا — الصوت المألوف للوعيد الناعم ...

« لست مضطرا الى ان تجيب في الحال ، يا بول ، تذكر اننا نحاول مساعدتك — قلب الامر وكن متأكدا . هل ستفعل هذا ؟ »

واحس نفسه يبتسم من جديد ، ازاء فكرة ان يكون متأكدا . يا لها من نكتة ! كأنه لم يكن على ثقة تامة من ان التطمين لم يعد ضروريا ، وان كل هذا الاستجواب ليس الا نكتة حمقاء . مهزلة هيولية ! فأي شيء كان بوسعهم ان يعرفوه عنه ؟ هذه العقول البلهاء ، هذه الادمغة البليدة المربوطة الى كل ما هو مألوف الى كل ما هو عادي ؟ مستحيل ان يخبرهم عنه ! ولم يخبرهم ، وحتى الان ، حتى الان ، والبرهان متوفر تماما ، هائل تماما ، وفي متناول اليد تماما ، حاضر هنا الى حد مدهش تماما ، في ذات هذه الغرفة فهل استطاعوا ان يصدقوه ؟ هل استطاعت امي ان تصدقه ؟ كلا — كان واضحا للغاية ، ان اي شيء سيقوله عنه ، اي تلميح يعطى مهما يكن بسيطا ، سيجعلهم متشككين — سيضحكون — سيقولون « هراء ! » ويتصورون عنه اشياء ليست صحيحة ..

« لماذا لا ، لست قلقا — ولم اكون كذلك ؟ »

ثم تطلع مباشرة الى عيني الطبيب ذات الجفنين النازلين ، وانتقل من واحدة الى الاخرى ، من حبة النور الى الاخرى ، اطلق ضحكة صغيرة .

وبدا على الطبيب الارتباك . واتكأ على كرسيه ، مرخيا يدا مكتنزة بيضاء على ركبتيه ، وتلاشت الابتسامة ببطء من على وجهه .

قال « حسنا ، يا بول ! » وتوقف محزونا « اني خائف من انك لا تأخذ المسألة بجدية كافية . وانك لا تدرك — لا تدرك بالضبط — » واخذ نفسا سريعا عميقا واستدار ، كما لو كان عاجزا ومنتقدا الكلمات ، الى الاخرين . لكن أمه وأباه كانا صامتين كليهما وليس من نجدة ستأتي .

« ينبغي عليك ان تدرك ، ان تعي ، انك لم تكن على ما يرام مؤخرا ؟ الا تدرك ذلك ؟... »

كان ممتعا ان يرقب محاولة الطبيب المتجددة للابتسام ، ويرقب النظرة المشوشة الغريبة ، كأنه كان فيها هناك حيرة خفية .

وأجاب « اني اشعر باني على ما يرام تماما يا سيدي . » واطلق من جديد الضحكة القصيرة .

واضحت نبرة الطبيب اكثر حدة « نحن نحاول مساعدتك » .

« نعم ، يا سيدي ، اعرف ذلك . ولكن لماذا ؟ انني بخير تماما ، فانا افكر فقط ، هذا كل ما هناك » .

قامت والدته بحركة سريعة الى الامام ، مرخية يدا على مؤخرة كرسي الطبيب .

قالت « تفكر ؟ ولكن ، باي شيء ، يا عزيزي ؟ »

كان هذا تحديا مباشرا ـ ينبغي مجابهته مباشرة . ولكن قبل ان يجابهها ، تطلع الى الزاوية عند الباب من جديد ، كأنه اراد ان يطمئن. وابتسم مرة اخرى لما شاهده ، لما سمعه . كان الحلزون ما يزال هناك ، يدوم بخفوت مثل شبح قطيطة صغيرة بيضاء تطارد شبح ذيل ابيض ، مصدرا وهو يفعل ذلك اكثر الهمسات خفوتا . اذن فكل شيء على ما يرام ! فقط لو كان بوسعه ان يظل حازما ، اذن لسار كل شيء على احسن ما يرام .

« أوه ، باي شيء ، بلا شيء ـ انت تعرفين الطريقة التي نفعلين بها ذلك ! »

« هل تعني احلام اليقظة ؟ »

« أوه ، لا ـ التفكير ! »

« ولكن التفكير ، باي شيء ؟ »

« اي شيء . »

وضحك للمرة الثالثة ـ ولكن حدث ان نظر الى وجه أمه ، فاصابه الفزع بسبب التأثير الذي بدا ان ضحكته قد تركته فيها . لقد ففرت فاها بسمة من الرعب .

... كان هذا شيئا مؤسفا ! سوء حظ ! كان يدرك انها ستسبب الالم ، بالطبع ـ لكنه لم يكن يتوقع ان يصبح الامر على هذا القدر من السوء . ربما ـ ربما لو أعطاهم فقط لمحة خاطفة ضئيلة ؟

قال « بالثلج ! »

« ماذا بحقك ! » كان هذا صوت ابيه . وزحف الخفان البنيان خطوة الى الامام فوق بساط الموقد .

« ولكن ، ماذا تعني ، يا عزيزي ! » كان هذا صوت أمه .

واكتفى الدكتور ان يحلق فقط .

« مجرد ثلج ، هذا كل ما هناك . اني احب التفكير فيه . »

« اخبرنا عن هذا ، يابني . »

« ولكن هذا كل ما هنالك . ليس هناك ما يقال . انت تعرف ما هو الثلج » .

قال هذا بغضب تقريبا ، فقد احس انهم يحاولون محاصرته . واستدار جانبا ليكف عن مواجهة الطبيب ، مفضلا ان يرى بوصة السواد بين ظلفة النافذة والستائر المسدلة ، البوصة الباردة من الليل البارد الملوح . ومرة اخرى شعر بالتحسن ، وبانه اكثر ثقة .

« أماه ، الا استطيع الذهاب الى الفراش الان ، ارجوك ؟ لقد اصبت بالصداع » .

« ولكنني ظننت انك قد قلت ـ »

« لقد اصابني لتوه ، بسبب كل هذه الاسئلة ـ ! الا استطيع ، يا اماه ؟ »

« بوسعك ان تذهب حالما ينتهي الطبيب » .

« الا تعتقد ان هذا الشيء ينبغي ان يفحص بصورة شاملة ، والان ؟ » كان هذا صوت ابيه ، وتقدم الخفان البنيان خطوة اخرى ، وكان الصوت ، صوت « العقاب » الشهير ، مرنا وقاسيا .

« أوه ، وما الفائدة يا نورمان ـ »

وبغتة اضحى الكل صامتين . الا انه كان يحس ، دون ان يكون بمواجهتهم تماما ، ان ثلاثتهم جميعا كانوا يراقبونه بتركيز استثنائي ـ محدقين فيه بقسوة ، كما لو كان قد ارتكب شيئا مهولا ، كما لو كان نفسه قد اصبح غولا . كان بوسعه ان يسمع الرفيف الناعم المشوش للهب ، والكلاك ـ كليك ـ كلاك ـ كليك للساعة ، بعيدا وبخفوت انبجست ضحكتان مباغتتان من المطبخ ، لتموتا بسرعة كما بدأتا ، وهمهم الماء في الانابيب ، وبعدها ، بدا الصمت كأنه يعمق وينتشر صوب الخارج ، ليضحى بطول الدنيا ، بسعة الدنيا ، بلا زمن ، ولا شكل ، ليتمركز محتما وعلى صواب ، بذلك التمركز البطيء الناعس ، وبتكثيف هائل ايضا لكل القوى ، عند بداية صوت جديد . وكان يعرف جيدا اي شيء سيكون هذا الصوت الجديد . ربما بدأ بصفير ، لكنه سينتهي بهدير ـ ليس هناك من وقت يفقده ـ عليه ان يهرب . ينبغي ان لا يقطع هذا هنا ـ

وبدون كلمة اخرى ، استدار وتسلق السلم راكضا .

ـ ٤ ـ

ليس هناك من وقت يفقده . كان الظلام يفد بموجات طويلة بيضاء. وزحم الليل صفير موصول ـ اخترقه عابرا على حين غرة نشيش متصل هائل لمؤثر وحشي ـ صفير بارد واطيء هز النوافذ . اغلق الباب وقذف ملابسه في الظلمة . كانت الارضية السوداء العارية مثل عبارة صفيرة ملقاة بين امواج من الثلج ، مغمورة تقريبا ، مغسولة تحت البياض ، مرتفعة كرة اخرى ، مغطاة بموجات عظيمة متكسرة من الريش . وكان الثلج يضحك ، متكلما من جميع الجهات وفي آن واحد : وتزاحم مقتربا منه حالما ركض وقفز جذلا في سريره .

قال له « اصغ لنا ! اصغ ! جئنا نوافيك بالقصة التي اخبرناك بها . هل تذكر ؟ ارقد . اغلق عينيك ـ الان ، فسوف لن ترى بعد هذا كثيرا . في هذه العتمة البيضاء ، من يستطيع ان يرى ، او يود ان يرى ؟ سنحل محل كل شيء .. اصغ ـ »

وبدأت رقصة متنوعة جميلة للثلج في مقدمة الغرفة ، تتقدم لتعود وتنسرح فوق الارضية ، لتنتصب مثل شذروان الى السقف ، تتمايل ، تلملم نفسها من جدول ندف جديدة تنسكب ضاحكة الى الداخل عبر النافذة التي تدوي ، متقدمة كرة اخرى ، رافعة اذرعا بيضاء طويلة ، قائلة سلام ، قائلة نوى ، قائلة برد ـ قائلة ـ

في تلك اللحظة انفتح بوحشية جرح عميق من النور المرعب عبر الغرفة من الباب المشرع ـ وانسحب الثلج يفح ـ شيء غريب ولج الغرفة ، شيء عدائي . واندفع هذا الشيء عليه ، تعلق به ، هزه ـ ولم يكن هو مرتعبا فحسب ، بل كان ممتلئا باشمئزاز لم يعرفه طوال حياته . ماذا كان هذا الشيء ؟ هذا الافلاق القاسي ؟ فعل الغضب والكراهية هذا ؟ وكان هذا كأنه يمد يدا صوب عالم اخر ليدرك ماهيته ـ وهو جهد بالكاد اضحى مقتدرا عليه . ولكنه ما زال يتذكر عن ذلك العالم الاخر ما يكفي ليعرف الكلمات التي تطرد الارواح الشريرة . ومزقت هذه الكلمات نفسها من حياته الاخرى بغتة ـ

« اماه ! أماه ! اذهبي ! اني اكرهك ! »

وعند ذلك الجهد ، كان كل شيء قد حل ، واضحى على ما يرام : وتقدم الصفير الموصول كرة اخرى ونهضت الخطوط البيضاء المرفرفة وسقطت مثل موجات بحرية هائلة هامة ، وكان الهمس يعلو والضحك اكثر تنوعا .

قال له « اصغ ! سنحكي لك القصة السرية الاخيرة ، والاكثر جمالا ـ اغلق عينيك ـ انها قصة صغيرة للغاية ـ قصة تصبح اصغر فاصغر ـ وهي تأتي من الداخل بدل ان تتفتح كالزهرة ـ انها زهرة تتحول الى بذرة ـ بذرة صغيرة باردة ـ هل تسمع ؟ اننا ننحدر مقتربين اليك ـ »

كان الصغير يتحول الان الى هدير ـ كان العالم كله يتحول الى شاشة شاسعة متحركة من الثلج ـ لكنه حتى هذه اللحظة قال سلام ، قال نوى ، قال برد ، قال رقاد .

بصرة ـ عراق

ترجمة : مصطفى عبود